

الخبط الناسجة لمشروع طه حسين النقدي

أ. ضيف الله السعيد

جامعة الجزائر 02

ملخص المقال:

تحاول هذه الدراسة رصد أهم المصادر التي أخذ منها طه حسين مشروعه النقدي عن طريق تتبع مسار حياته بدء بالمرحلة القديمة المتمثلة في الريف ثم القاهرة ثم تأتي المرحلة الباريسية التي بدأت بانتقاله الى باريس وتبنيه للأفكار والمناهج الغربية. فحاول المزج بين الثقافتين العربية والغربية، مع محاولة تغيير الذهنيات بالانفتاح على الآخر، ومحاولة توظيفه لمناهج حديثة كانت نتائجها غير متوقعة تصدم في كل مرة القراء، أضف إلى ذلك طرحه لمجموعة من القضايا المختلفة التي تخص علم الاجتماع وعلم التاريخ وعلم الأدب وغيرها.

الكلمات المفتاحية:

طه حسين، الانفتاح على الآخر، قراءة التراث، المناهج النقدية، المشروع النقدي.

الملخص باللغة الفرنسية:

Dans cette étude j'essaye d'expliquer les méthodes critiques utilisées par taha husseine dans son œuvre en étudiant sa vie en égypte et à paris Où il a adopté de nouvelles méthodes critiques.

Taha hussein a rassemblé, dans son œuvre, les deux cultures (arabe et occidentable) par l'utilisation de nouvelles méthodes de critique. L'oeuvre de taha hussein a surpris plusieurs fois les lectures car il a traité des sujets sociaux, historiques, littéraire...

الملخص باللغة الانجليزية:

In this study I try to explain methods used criticism by Taha husseine in his work is studying his life in Egypt and in Paris where he has adopted new critical methods.

Taha Hussein has brought together, in his work, the two cultures (Arabic and occidentable) by the use of new methods of Critical. The oeuvre of Taha Hussein has surprised several times the readings because it has treated subjects so special, historical, literary...

نص المقال:

كان طه حسين من أكثر رجالات فكر النهضة العربية إثارة للاهتمام، وتنبع أهميته في نهجه الفكري الذي راح يتصدى به لتغيير المجتمع العربي التقليدي، فمشروعه النقدي تبلور ضمن إشكالية النهضة، التي كان السؤال الرئيسي فيها هو : لماذا تقدم الغرب وتأخر العرب ؟ و ما السبيل كي تصبح لنا مكانتنا المتقدمة والفاعلة في حضارة العصر ؟

ومنه تجلت اتجاهات فكرية تبحث عن إجابات، فتنازع تياران بارزان " يسعى الأول منهما للتغريب واللاحاق بأوروبا في استلاب واضح، بينما يبذل الثاني جهده في الدفاع عن ثقافة المجتمع وأصالته العربية الإسلامية"¹، فتمثل الأول في التيار الفكري الوطني الليبرالي الذي أخذ بمفاهيم العصر واحتذاء النموذج الغربي، وفي المقابل برز التيار السلفي الذي يرمي إلى تحصين الذات من الدوبان في الآخر/ الغرب الليبرالي .

تميزت مرحلة النهضة العربية بصراع ايديولوجي تقاذفه تيارات مختلفة، باختلاف المواقع والمواقف السياسية ومرجعياتها الفكرية. فما الموقع الذي احتله طه حسين داخل هذا الصراع ؟.

جاءت تجربة طه حسين في زمن كانت سلطة المؤسسات الدينية (الكتّاب - الأزهر) تعاني من جمود فكري طويل، وتزامن ذلك مع جهود الشيخ محمد عبده ومدرسته الإصلاحية في محاولة تطوير نظمه التعليمية، وهذا مع ما كان يسود الريف المصري الذي ينتمي إليه طه حسين الذي كان تغلب عليه الخرافة والأساطير والتقاليد، التي كانت سببا في إفقاده بصره، كل

هذا وُلد في نفسه شعورا بالمرارة وإحساسا عميقا بالتخلف، لكن فترة انتقاله إلى القاهرة وانتسابه إلى الجامعة سنة 1908 م، جعله يطلع على مناهج غربية، كما كان انخراطه بالصحافة التي كانت في زمنها محركا للصراعات السياسية والأيدولوجية جعله واضعا قدما هنا، وأخرى هناك، حيث لا يخفي حرصه على تحديد مؤسسة الأزهر، في الوقت الذي أبدى انبهاره بشعاع الحضارة الغربية.

إن الازدواجية هيمنت على مشروع طه حسين الفكري والنقدي. ففيما تمثلت هذه الازدواجية في كتاباته؟ أولا: المرجعية القديمة:

1- المرحلة الريفية:

تعتبر قرية مغاغة بمحافظة المنيا مولد طه حسين بدايات منطلقاته المعرفية المتواضعة، والمتمثلة في قدر من العلوم العربية والشرعية، و في شيء من المعتقدات السائدة، فحبب إليه انصرافه عن اللعب، وميله إلى الاستماع إلى " قصص الغزوات والفتوح، وأخبار عنزة والظاهر بيبرس، وأخبار الأنبياء والنسك والصالحين، وكتب في الوعظ والسنن " تتلى في مجالس يحضرها " أبوه وطائفة من أصحابه، بعد صلاة العصر، حتى إذا صلوا العشاء " استمع معهم الشاعر ينشد لهم أخبار الهلالين والزناتيين"².

ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى "كان قد أتم حفظ القرآن ، وألم بمبادئ العلوم العربية، ليرسل بعدها إلى القاهرة لطلب العلم"³.

لكن مع كل هذا التنوع المعرفي والثقافي في قرية (مغاغة)، أصبح الطفل " يريد أكثر من هذا عمقا وأبعد مدى، وهنا بدأ الوالد يرحب بفكرة سفر الصبي إلى القاهرة مع أخيه "⁴.

2- المرحلة القاهرية : تعد من أهم المراحل في حياة عميد الأدب طه حسين وهي التي تم فيه انتقاله إلى القاهرة بالتحاقه بمؤسسة الأزهر الشريف عام 1902 م ، وهو في ذلك مدفوع إلى غاية يتوسمها ومثلا يسعى إليه يتمثل في قول أبيه له: " إني لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا وأراك صاحب عمود في الأزهر "⁵.

في عام 1908 افتتحت الجامعة المصرية فاناسب إليها منذ البداية، وعرف أنها مدرسة لا كالمدراس، وأحس أن مزيتها الكبرى عنده أن الدروس التي ستلقى فيها لا تشبه دروس الأزهر من قريب أو بعيد.

فحضر دروس احمد كمال باشا، احمد زكي بيك، اغناسيو جويدي، ونالينو وغيرهم⁶، وواظب على حضور دروسهم، مع دروس الأزهر في آن واحد، إذ يخرج في الصباح فيسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ سيد بن علي المرصفي (ت 1931م) الذي ما أن سمع له درسا أو درسين " حتى أحبه وكلف به "⁷ ويخرج منه مع المساء إلى الجامعة المصرية فيسمع من أساتذته الأوروبيين أحاديث لا عهد له بمثلها، ويوازن بين ما يدرسه في الصباح في الأزهر، وما يتلقاه في المساء في الجامعة، فيثير ذلك في نفسه "فنونا من التمرد وتدفع نفسه إلى ضروب من الثورة والجموح، وكان هذا كله يعرضه لكثير من الشر "⁸.

3_ أثر بعض مشايخه وأساتذته في تكوينه الأدبي:

- الشيخ المرصفي : سيد بن علي المرصفي (ت 1931م)، توطدت العلاقة بينهما مما اثر في توجيهه العام، " وهذا ما نلمسه في مقدمة كتابه تحديد ذكرى أبي العلاء وفي مطلع كتابه (في الأدب الجاهلي) و(الأيام) "⁹. فدرس طه حسين على يديه درس المفصل للزمخشري والكامل للمبرد، وحماسة أبي تمام بالشرح والتعليق ...

ولابد أن تلك الصلة بينه وبين المرصفي عوضته ما لقيه من إخفاق، وبما كان يتمناه في الأزهر، فوجد "الأستاذ الذي يرضي ذوقه والناقد الحاد اللسان لعلم الأزهر وشيوخه والأديب الذي يتحدث في حرية مطلقة عن كل إنسان، وعن كل موضوع،

فالمرصفي يتناول الدرس الأدبي بطريقة مخالفة لما كان معتادا في الأزهر دراسة تعتمد على النقد اللغوي، والبصر بجواهر الكلام، ومعرفة خصائصه الأسلوبية¹⁰.

لقد كان للمرصفي له اثر كبير في تكوينه الأدبي؛ لأنه كان من الدعاة إلى حرية الأدب والفكر.

يمكن القول انه علمه كيف يقرأ النص العربي قراءة صحيحة من الداخل في لغته وعروضة، وكيف يفهم ألفاظه ومعانيه، ويدرس أساليبه، فهو يجمع عناصر المدرسة العربية الذوقية الكلاسيكية من ذوق سليم وصدق في الرأي، وهذا ما اثر فيما بعد في كتابته الأدبية.

• لطفي السيد والشيخ جاويش:

تأثر طه حسين بشخصيتين مهمتين كان لهما أثر في توجهه الأدبي هما احمد لطفي السيد (1872-1963) والشيخ جاويش (1876-1929).

فإذا كان المرصفي قد وضع له بعض المعالم في حياته، لا يمكن أن تمحى فان لطفي السيد قد أضاف معلما ولبنة جديدة إلى فكره "فقد اخذ لطفي يقرب طه إليه ويرغبه في زيارته، ويلقى منه الترحاب والودّ (...) آخذا في التحدث إليه والاستماع منه، فاتحا له أبوابا من التفكير لم تكن تخطر له على بال"¹¹.

لقد تأثر طه حسين بمقالات لطفي السيد في (الجريدة) التي وجد فيها "لذة لا يستطيع أن ينصرف عنها"¹².

يأتي لطفي السيد لينطلق بعيدا بالفكر الليبرالي في مصر عن النهج التوفيقي لمحمد عبده "فأبدي إعجابا شديدا بالفلسفة اليونانية، فعمد إلى ترجمة مؤلفات أرسطو الذي كان من فرط إعجابه به يدعوه سيدنا أرسطو رضي الله عنه"¹³. وهو ما كان لطفي السيد يدفع طه حسين دفعا نحو التاريخ "ومن ذلك انه كان يشجع تلميذه على الدراسة في الجامعة، ولم يقتصر الأمر على التشجيع؛ فقد كان اتصال طه بلطفي مدخلا ممتازا إلى الدراسة الجامعية.

كما عاصر طه حسين شخصيات أخرى وهو الشيخ عبد العزيز جاويش، الذي كان له دور مماثل لدور (لطفي السيد) في بناء فكر طه حسين وما يميزه عن لطفي السيد في انه لم يكن من أصحاب القصد والأناة، فكان "صاحب عدااء شديد لشيوخ الأزهر، وانه كان يحرض طه على السفر إلى فرنسا"¹⁴.

• المستشرق كارلو ألفونسو نالينو. arlo alfons – allino :

بدأت صلته بالعرب وبمصر خاصة عام 1893م عندما أرسلته وزارة المعارف الإيطالية ليدرس في القاهرة، فتمكن من التعرف على أحوال مصر والشرق والإسلام عامة.

وكان لدروس " نالينو " أثر كبير على " طه حسين " وهذا من خلال مفهومه للأدب وعلاقته بالظواهر الاجتماعية ، فيؤكد بأن الأدب كغيره من الظواهر الثقافية يعكس شيئا خارجة " قد يكون هذا المنعكس هو الحياة المادية أو الحياة المعنوية ، ولذلك تتحدد لاستخدام تشبيه المرأة في وصف هذه الظواهر وظيفة الدالة التي تتصل بطبيعة العلاقة بين ظواهر الثقافة المختلفة وما تمثله أو تصوره "¹⁵. يقول عن بعض دروس نالينو: " لأول مرة تعلمنا أن الأدب مرآة لحياة العصر الذي ينتج فيه، لأنه إما أن يكون صدى م أصداؤها، وإما أن يكون دافعا من دوافعها، فهو متصل بها على كل حال، وهو مصور لها على كل حال و لا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درست الحياة التي سبقتها فأثرت في إنشائها، والتي عاصرتها فتأثرت به وأثرت فيه "¹⁶.

ويؤكد جابر عصفور أن فكرة الحتمية الاجتماعية أو الجبر الاجتماعي ما هي إلا أثر من آثار الأستاذ نالينو هذه التي استمرت معه من كتابه " ذكرى أبي العلاء " إلى قادة الفكر "¹⁷.

كما تعلم طه حسين من أستاذه إمكانية أن يوازن بين الأدب العربي وبين الآداب القديمة الكبرى أكد " أن الأدب بطبيعته شديد الحاجة إلى المقارنات والموازنات "18.

ويمكن القول أن المرصفي علمه كيف يقرأ النص، أي كيف يفهمه من الداخل في ذاتيته دون تجاوز، أما نالينو فعلمه كيف يفسر النص ويتجاوز به ذات النص، أي كيف يوظف النص توظيفاً جديداً، ويعيد صياغته وينتقل به إلى مجال الكتابة، فإذا كانت القراءة الأولى قراءة لغوية محدودة، فإن الثانية تتجاوز حدود القراءة اللغوية لتكشف عن أشياء ذات بال كما قال طه حسين.

ثانياً: المرجعية الحديثة

1_ فرنسا والبعد الآخر للثقافة الغربية

قررت الجامعة إيفاده في بعثة دراسية إلى فرنسا، وهذا بعد انتهائه من مناقشة رسالة الدكتوراه من الجامعة، فكانت وجهته الأولى مدينة (مونبليه الفرنسية)، وكان من المقرر أن يسافر في 1914، لكن تأجيل الموعد لنشوب الحرب العالمية الأولى، وأوقفت " إرسال البعثة الجديدة واضطر الفتى إلى أن ينتظر "19، ثم سمح له بالسفر في نوفمبر من نفس السنة والتحق بجامعة يدرس العلوم التاريخية وظل فيها نحو عام، ليعود إلى مصر لسوء حالة الجامعة المالية، ولكن بعد ثلاثة أشهر عاد إلى باريس، فاستمع إلى دروس علم النفس على يد (فوكو) و الأدب الفرنسي على يد " غوستاف لونسون G. LONSON، والتاريخ الحديث على " سينيوس . Seignobos.

ليلتحق بعد ذلك بجامعة السوربون في ديسمبر 1915 م فحصل على درجة الدكتوراه بأطروحته التي حملت عنوان (فلسفة ابن خلدون، تحليل ونقد) والتي نوقشت في 12 جانفي 1918 م بإشراف إميل دور كايم E. Durkheim . إن باريس عند طه حسين " تكاد تختصر العالم الإنساني باختلاف أزمنته وأمكنته "20.

لقد كانت دراسته في فرنسا ضرورية له؛ حيث أعطته البعد الآخر للثقافة الشرقية، فاكتمل المناهج الأفضل، كما مكنته من التعمق في " الاتصال بحياته الحقيقية الداخلية، والوقوف على أسرار هذه الحياة، وعلى هذه الأمور الخفية التي تبعث الأفراد على أن يعملوا ، وللجماعات على أن يجاهد بعضها بعضاً ، ويمكن بعضها بعض ، ويتغلب بعضها على بعض "21.

حتى إذا عاد إلى مصر عين أستاذاً في الجامعة المصرية ليدرس مادة التاريخ القديم (اليوناني والروماني)، وأخرج كتابين هما (صحف مختارة من الشعر التمثيلي) و (نظام الاثنيين) لأرسطو المترجم عن اليونانية، كما أخرج (الظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الآلهة وأثرها في المدينة) و (قادة الفكر) و (في الأدب التمثيلي عند اليونان - سوفوكليس).

لقد كانت فلسفة أرسطو طاليس كما قال " أساس النهضة العربية الأولى، وأساس النهضة الأوربية في العصر الحديث، ويجب أن تكون أساس النهضة العلمية في مصر الحديثة "22.

2_ المنطلقات الفلسفية المساهمة في تكوين منهجه

• الفلسفة الوضعية :

تأتي الفلسفة الوضعية كإطار مرجعي لمنهج طه حسين النقدي وتصوره للأدب، وإن لم يكن هناك اتصال مباشر بها، فإنه تأثر بعدد من كبار الأساتذة والنقاد من بينهم (دور كايم، شارل سينيوبوس، غوستاف لانسون، هيبوليت تين، سانت بوف و جون لوميتير).

وكان هؤلاء يعتبرون النص الأدبي وثيقة؛ أي أن النص يدرس في وظيفته التي تحيل على المرسل غير أن الوضعية التي وجدها طه حسين في السوربون تجاوزت مفهوم مؤسسها (اوغوست كونت) وأتباعه بتعدد مذاهبها فنجد:

أ- إميل دوركايم Emil durkheim :

أما ما كان من تأثير طه حسين بدوركايم، فقد تحدث عنه في كتابه (الأيام)، قائلا عن نفسه: "كان شديد التأثير بدروس الأستاذ دور كايم في علم الاجتماع، وكان الأستاذ (دور كايم) الذي أنفق عاما كاملا يدرس لتلاميذه مذهب الفيلسوف الفرنسي (سان سيمون) الذي يقول أن أمور الحكم الصالح للمنتج الذي يحقق العدل ويكفل رقي الشعب، ويتيح للإنسانية أن تتقدم إلى الأمام، يجب أن تصير إلى العلماء، لأنهم هم الذين يستطيعون إثبات أنه نتيجة للعلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور والمضي في سبيل الرقي"²³.

ب - شارل سينوبوس Charl Seigobos :

آمن شارل سينوبوس بأن دراسة التاريخ يجب أن تكون علمية، وهذا يعني إجراؤها وفق قواعد وقوانين نقدية منظمة ، وان كانوا يعتقدون أن وقائع التاريخ وقائع فردية بطبيعتها، ولا يمكن تقصيصها موضوعية كاملة بمعزل عن العوامل الذاتية للمشاركين في الأحداث التاريخية ولشهودها ، وللمؤرخين أنفسهم.

وبذلك نشب تناحر بين فئتين: من جهة حاول علماء الاجتماع جعل التاريخ أحد علومهم، ومن جهة أخرى يرى علماء التاريخ عكس ذلك، وهنا حاول طه حسين التوفيق بين الرأيين، وذلك من خلال دراسة حول (ابن خلدون الاجتماعية).

• الفلسفة التجريبية:

أ- سانت بييف sainte beuve :

لقد كان له دور في إرساء دعائم المنهج التاريخي وتطوره بخاصة في دراسته للأدب؛ فكان يرى أن النقد الأدبي هو النفاذ في ذات المؤلف، لنستشف روحه من وراء عباة بحيث يفهمه قراءه، إيماناً منه بأنه كما تكون الشجرة يكون ثمارها، ويقوم منهجه على دراسة الأدباء دراسة علمية تقوم على بحوث تفصيلية لعلاقاتهم بأوطانهم، وأممهم، عصورهم وآبائهم، أمهاتهم وأسرهم، تربياتهم وأمزجهم، ثقافتهم وتكويناتهم المادية والجسمية، ومواصفاتهم النفسية والعقلية، وعلاقاتهم بأصدقائهم، والتعرف على كل ما يتصل بهم من عادات وأفكار.

أما عن طه حسين فقد تأثر بسانت بييف واحتذى طريقته في تأليف التراجم الأدبية ، فجعل من نفسه ناقدا يتقمص شخصية أبي العلاء ليفهم شعره، ويتذوقه وينقده النقد الصحيح²⁴.

ب- هيبوليت تين Taine hypolyte :

مؤرخ وفيلسوف وناقد فرنسي، خلف أستاذه سانت بييف ليطبق في نقده الأدبي منهجا علميا اجتماعيا، من خلال ثلاثيته النقدية (الجنس، البيئة، العصر)، التي استمد أصولها من فلسفة (باروخ سبينوزا) وفلسفة (هيجل) الشمولية .

أما تأثير طه حسين بـ (تين) فيتجلى عنده من خلال دراسته لزمان أبي العلاء ومكانه ومجتمعه، وكذا من خلال اهتمامه بتحديد موضع عنصر عصر أبي العلاء من العصور العباسية، ورصده للظروف السياسية (ص 43 وما بعدها)، والاقتصادية (ص 66) والدينية (ص 68) والاجتماعية (ص 72) التي ميزت عصر أبي العلاء²⁵.

ج - غوستاف لانسون Gustave Lanson :

لقد أعلن أستاذ الأدب الفرنسي لانسون بأن تاريخ الأدب جزء من الحضارة ، وأعين النقاد التاريخيين تنصب على رصد هذه الظاهرة ومحاولة التفريق بين المنهج، كخاصية نقدية، وبينه كخاصية توثيقية.

فيرى أن منهجه هو في صميمه (المنهج التاريخي)، وهذا ما برهنه أثناء دراسته للأدب الفرنسي الذي يراه كمظهر للحياة القومية الفرنسية التي تنصب في بوتقتها كل التيارات.

أما عن طه حسين فقد تأثر بالمنهج اللانسوني، وبخاصة في دراسته لحياة أبي نواس، فيقول: (أريد أن أدرس شعر أبي نواس، فأنا مضطر أول الأمر إلى أن لأبحث عن هذا الشعر، ولهذا البحث المنظم قواعده وأصوله، فإذا وجدت هذا الشعر فأنا مضطر إلى أن أقرأه وأحقق نصوصه وأقارن مقارنة علمية دقيقة بين النسخ التي تشتمل عليه، فإذا استخلصت هذا النسخ والنصوص المتباينة نصا انتهى إليه بحثي واختياري، فأنا مضطر أن أقرأ النص قراءة الباحث الذي يريد أن يفهم ويفسر ويحلل ويستخلص ما في هذا الشعر من خصائص لغوية أو نحوية أو بيانية، فإذا أنا فرغت من هذا كله فاستكشفت النص، وحققته وفسرته واستخلصت خصائصه ومميزاته، مستعينا في هذا كله بهذه العلوم المختلفة، فقد انتهى القسم العلمي الخاص من عمل المؤرخ للآداب، وبدأ القسم الفني، الذي اجتهد ما استطعت في أن أحقق تأثير شخصيتي فيه، ولكني اعتمد فيه سواء أردت أم لم أرد، على الذوق، وهذا القسم هو النقد²⁶.

ونجده طبق هذا المنهج في دراساته منها (في الأدب الجاهلي)، (ذكرى أبي العلاء المعري)، (شعراء العصر الأموي)، (أحاديث الأربعة) و(مع المتنبي).

كما كان طه حسين ناقدا انطباعيا في بعض مؤلفاته؛ فنجدته يصف الكتابة النقدية لناقد فيقول: "وأنت تستطيع أن تقرأ الآثار القيمة التي تركها (سانت بييف) فسيكون موقفك منها موقفك من الآثار الفنية القيمة، وستجد في قراءتها لذة تعدل اللذة التي تجدها عندما تقرأ آثار (موسيه) أو (لامارتين) أو (فين) من الذين كتب عنهم (سانت بييف) ولن تجد هذه اللذة العلمية التي لا تخلو من جفاء ذلك لأن" سانت بييف لم يستطيع أن يكون عالما، لم يستطيع أن يححو شخصيته، فأنت تراه فيما يكتب، وأنت تسمعه، وأنت تتحدث إليه وأنت تستكشف عواطفه و ميوله وأهواءه²⁷.

• منهج الشك الديكارتي:

يقوم المنهج الديكارتي بالأساس على العقل والتجرد من كل الالتزامات السابقة ويستند إلى جملة من القواعد التي تساعد الباحث في معالجة النصوص الأدبية وغير الأدبية للوصول إلى حقائق بناء على فرضيات جاء بها الواقع في أي شكل من الأشكال، وسلاحه العقلانية.

يعود هذا المنهج إلى رائده (رينيه ديكارت 1556-1650) فهو من أوائل الذين مجدوا العقل ونادوا بارتداد الاتجاه العقلي حتى سمي (أبو الفلسفة الحديثة).

تجلت الأفكار الديكارتية عند طه حسين برفضه الشبه كلي لما يعرف بالشعر الجاهلي والتي تسليح بالمنهج منذ البداية وبشجاعة نادرة، فيصرخ: "إن الكثرة المطلقة من الأدب الجاهلي ليس جاهليا وإنما متحول بعد الإسلام، فهو يمثل حياة المسلمين وأهواءهم أكثر من تمثيله لحياة الجاهليين²⁸.

فما مدى تأثيره بمنهج الشك؟ وإلى أي درجة طبق هذا المنهج؟

ويمكن إيجاد نقطة التقاء طه حسين بديكارت في الاستناد "على مرجع استخدام العقل في وجه الإيمان، والشك في وجه التسليم²⁹.

أما نقاط الاختلاف، فتتمثل في أن منهج ديكارت فلسفي، أما طه حسين فأدبي صرف، والشك الأول وسيلة لليقين أما الثاني فالشك وسيلة للإنكار، والشك الديكارتي يستهدف معرفة موضوع البحث معرفة تحيط بما هو جوهري، و يقيني فيه، في حين أن الشك في صحة الشعر الجاهلي يتسم بالطابع السلبي وينتهي إلى زوال البحث وتلاشيته...

ويمكن القول أن طه حسين اخذ من ديكرت " نقطة البداية الإجرائية فحسب، أي الشك المنهجي فيما تلقفناه من معارف، ومناهج سابقة، ولم يكن طه حسين يقصد بتبنيه للشك المنهجي الديكارتي تجاهل تراثنا الأدبي والفكري التاريخي عامة، وإنما كان يقصد إعادة النظر في هذا الموروث التراثي نفسه، في ضوء قوانين العقل وحقائق الواقع الموضوعي الاجتماعي"³⁰.

ثالثا: طه حسين والتوجه الليبرالي:

1- العقلانية المفهوم والظهور العربي:

ربما كان طه حسين من أكثر رجالات فكر النهضة العربية جلبا للاهتمام، وهذا لنهجه الفكري الذي راح يتصدى به لتغيير المجتمع العربي التقليدي فهو رائد العقلانية أو الليبرالية العربية.

ويعني مفهوم العقلانية أولية العقل وسيادة أحكامه وتقريراته في مجالات المعرفة المختلفة خصوصا المعرفة العلمية، ويستعمل هذا المصطلح في وصف وجهات النظر الخاصة التي يحتج بها مفكرو الأنوار ممن يعتقدون بقدرة العقل والبحث العلمي على كشف الحقائق ووضع أسس الحرية المتناغمة مع النظام الاجتماعي.

وما يقال عن العقلانية يقال عن التنوير، فالأول يحيل إلى رؤية فكرية للعالم أما الثاني فيحيل إلى وظيفة ثقافية أو اجتماعية تقوم بها منظومة الأفكار.

بعد من أبرز دعاة الليبرالية والتحديث؛ فبعد أن درس في الأزهر (1902-1908) غادره إلى الجامعة المصرية، فغادر بذلك ثقافة الأزهر ليتجه في طريق الثقافة الغربية المسيطرة في الجامعة المصرية، ولما انتقل للدراسة في باريس تعمق توجهه نحو الغرب الثقافي في وجدانه وعقله.

لقد قدم طه حسين مشروعا تنويريا ثقافيا لا يعرف الانغلاق، وإنما يعرف الحوار بين الثقافات والحضارات، فكان يتحدث عن شجاعة العقل وقدرته على الوصول إلى الحقيقة، ولهذا كان يتحدث عن الأدب الغربي كما يتحدث عن الأدب العربي.

انطلق طه حسين في بداية مشروعه التنويري من "أطروحاته الشهيرة القائلة بعدم تحقق البحث العلمي إلا بتجرده عن الأهواء الدينية والقومية وذلك في كتابه الشهير أيضا (في الشعر الجاهلي) الذي رجح اشد الرجل وأعنفه، والذي الجم صاحبه، أو الجم العقل دون أن يقدم تنازلات لصالح الأهواء"³¹.

لم يكن يعني طه حسين بالأدب فقط الشعر والنثر والقصة والرواية، بل كان يعني به مضامين متعددة وهو بالتالي يشمل الثقافة بشكل عام والعلم والفكر بشكل خاص، وهذا "لا شك انه انطلق من موقف تمليه مسؤولية المثقف، كما وعاما هو وأدركها، وهي (صياغة المستقبل) الذي رآه أكثر ملائمة لشروط مجتمعه، أو لنقل للشروط التي أراد لمجتمعه أن يأخذها بما نفسه فيما رسم له من طريق أو أراد التعبير عنه في تحولات باتجاه ما رآه عصره"³².

وقد أسس هذا المشروع التنويري على خمسة مبادئ يتصل كل منها بالآخر:

فأولها العقلانية: فمسألة (العقل) تعدو بؤرة مركزية في عملية إنتاج المفاهيم وتطبيقها عند طه حسين ومشروعه " لم ينطوي على بعض أطروحات الأكاديمية أو التقليعات الثقافية والأدبية العابرة في المجتمع الغربي، بل التقط الجوهر المميز لعقلانية الثقافة الغربية، المتمثلة بالديكارتية والتي غدت في زمن طه حسين تكتسب طابعا اجتماعيا في هذه المجتمعات في حين أنها لم تكن تمثل إلا طموحا تنويريا ونخبويا فائقا بالنسبة للمجتمع العربي، أي أن مشروع طه حسين لم يكن مشروع تحديث أولي فقط، بل كان مشروع التحديث للعقل العربي عموما"³³.

أما ثانيها الإنسانية: تحدث عنها طه حسين بوصفها الوجه الآخر للعقلانية، فلا حياة ولا وجود لمن ينغلق على نفسه، ولكن يتفوق في مبادئ عنصرية عرقية ضيقة بغیضة عن تفوق جنس عن جنس، فهناك عقل إنساني واحد، وهناك حضارة إنسانية

كلية واحدة " فالحضارة الواحدة لا تلغي الخصوصيات المتنوعة، والخصوصيات المتنوعة لا تلغي الوحدة الحضارية، والنموذج الأكمل لهذه الحضارة هو النموذج الغربي، الذي تشكل من روافد حضارية مختلفة يونانية ورومانية وعربي إسلامية، وشرقية وان تكاملت وانصهرت ونضجت جميعا في عصرنا الراهن في هذه الحضارة الغربية، ولا سبيل لتقدمنا بغير الأخذ بأسباب هذه الحضارة والتفاعل معها على أساس من الندية، بما يتلاءم مع احتياجاتنا وظروفنا، ليس في هذا تغريب"³⁴.

المبدأ الثالث هو الحرية: فلا إنسانية بدون حرية، وأكثر أنواع الحرية التي يلح عليها طه حسين هي حرية الداخل، أي تأكيد الحرية داخل أنفس المفكرين والمثقفين، بحضورها في أعماقنا، وممارستها في حضورنا العقلي وفي أبعادنا الروحية وفي كل نخط من أنماط إبداعنا وتفكيرنا.

ورابعها العدل: وهو بمعناه المعرفي والثقافي، فالتعليم كالماء والهواء، ينبغي أن يتاح لكل مواطن ولا بدّ من توجيهه وتخطيطه، ارتفاعا به إلى احتياجات مجتمعا وحقائق عصرنا.

كل هذه المبادئ إذا اجتمعت أفضت إلى المبدأ الخامس وهو التقدم ويعني به أن الحاضر يختلف عن الماضي وان البشرية تتطور إلى الأمام وان التراكم العلمي الإنساني والمعرفي يجعل المتأخر في وضع أفضل معرفيا من المتقدم، وبقدر ما كان المبدأ عند طه حسين يبرز النزوع الخلاق للثقافة كان هذا المبدأ يكشف عن الطابع المستقبلي، أما حديثه عن الماضي فهو من أجل الاستفادة من الخبرات الخلاقة للماضي للاندفاع بها إلى الأمام، في طريق المستقبل الذي يظل حلما

ويمكن القول أن طه حسين حرص على امتلاك ثقافة عربية، وأخرى أجنبية، وحاول المزج بين الثقافتين، مع محاولة تغيير الذهنيات بالانفتاح على الآخر، وبمحاولة إصراره على استخدام مناهج حديثة كانت نتائجها غير مألوفة وغير متوقعة، تصدم في كل مرة القراء، أضف إلى ذلك طرحه لمجموعة من القضايا المختلفة التي تخص علم الاجتماع، وعلم التاريخ، وعلم الأدب، وغيرها.

وقد استطاع ان ينحت له منهجا نقديا عبر تمثله وهضمه هذه المناهج، وهو منهج ينطوي على نوع من البناء، له وحدته المتميزة وصيغته التكوينية الخاصة، وإن لدا لأول وهلة عبارة عن مجموعة متباينة من الأبنية النقدية.

الهوامش

- (1) طه حسين بين التحرير والتغريب: أحمد دعدوش، دار ناشري للنشر الإلكتروني - مصر ، سنة 2011، (www.nashiri.net).
- (2) الأيام: طه حسين، المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني - لبنان، المجلد 1، ط2، سنة 1974، ص 27-28.
- (3) تحولات طه حسين: مصطفى عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، سنة 1990، ص 18.
- (4) ماذا يبقى من طه حسين؟: سامح كريم، دار القلم - لبنان، ص 23.
- (5) الأيام: طه حسين، ص 143.
- (6) الأيام: طه حسين، ص 392، 455، 457، 462.
- (7) الأيام: طه حسين، ص 352.
- (8) نقد وإصلاح: طه حسين، دار العلم للملايين - بيروت، ط 7، سنة 1979، ص 162، 166، 168.
- (9) طه حسين روائيا: خالد الكركي، دار الجيل - بيروت، ط6، سنة 1996، ص 25.
- (10) أعلام الأدب المعاصر في مصر: حمدي المسكوت، مارسدن جونز، دار الكتاب اللبناني - لبنان، ط2، سنة 1982، ص 09.
- (11) الأيام: طه حسين ، ص 416-417.

(12) حديث الأربعة : طه حسين، المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، المجلد 02، ط2، سنة 1974، ص 50.

(13) أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل : حسين فوزي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط2، سنة 1975، ص 208.

(14) طه حسين الكتابات الأولى: عبد الرشيد الصادق محمودي، ص 27.

(15) المرايا المتجاوزة: جابر عصفور، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، سنة 1983، ص 79.

(16) نقد وإصلاح: طه حسين، ص 171-172.

(17) المرايا المتجاوزة: جابر عصفور، ص 79.

(18) في الأدب الجاهلي: طه حسين، دار الكتاب اللبناني - لبنان، المجلد 5، ط1، سنة 1973، ص 20.

(19) الأيام: طه حسين، المجلد 01، ص 512.

(20) أديب: طه حسين، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، سنة 1998، ص 633.

(21) رحلة الربيع والصف: طه حسين، دار العلم للملايين - بيروت، سنة 1964، ص 160.

(22) حديث الأربعة: طه حسين، المجلد 02، ص 54، 53.

(23) الأيام: طه حسين، المجلد 01، ص 515.

(24) النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك: إبراهيم محمود خليل، دار المسيرة - الأردن، سنة 2003، ص 45.

(25) طه حسين رجل وفكر وعصر: أحمد علي، دار الآداب - بيروت، ط1، سنة 1985، ص 20.

(26) في الأدب الجاهلي: طه حسين، المجلد 5، ص 52.

(27) المرايا المتجاوزة: جابر عصفور، ص 320.

(28) في الأدب الجاهلي : طه حسين، المجلد 5، ص 67.

(29) طه حسين العقل والدين: عبد الرزاق عيد، مركز الإنماء الحضاري، - سوريا، ط1، سنة 1995، ص 43.

(30) مفاهيم وقضايا إشكالية: محمود أمين العالم، موقع كتب عربية www.kotobarabia.com، ص 293.

(31) طه حسين العقل والدين : عبد الرزاق عيد، ص 35.

(32) الثقافة و الحرية ، قراءة في فكر طه حسين: ماجد السمراي، الأهالي للطباعة - سوريا، ط1، سنة 1996، ص 12.

(33) طه حسين العقل والدين: عبد الرزاق عيد، ص 39-40.

(34) مستقبل الثقافة في مصر: طه حسين، دار المعارف - مصر، ط2، سنة 1996، ص 6، ص 392.